مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN 2170-0370/E-ISSN 8127-2710
المجلد16/العدد01 – السنة 2025 ،ص174 ص191

صورة النّخلة ورمزيتها الثّقافية في الشّعر الشّعبيّ بواحات الجنوب الشرقي الجزائري -نماذج شعريّة مختارة - مقاربة نقدية ثقافية

The Image of the Palm Tree and Its Cultural Symbolism in Popular Poetry from the Oases of Southeastern Algeria: Selected Poetic Examples - A Critical Cultural Approach

بالخير فتحا الله 1، طراحة زهية 2

1 جامعة مولود معمري تيزي وزو الجزائر مخبر تحليل الخطاب fethallah.belkhir@ummto.dz

2 جامعة مولود معمري تيزي وزو الجزائر .مخبر تحليل الخطابzteraha@yahoo.fr

تاريخ الاستلام : 2024/08/07 ؛ تاريخ القبول : 2025/01/22 ؛ تاريخ النشر : 2025/01/31

الملخص

إن الاهتمام بالطبيعة والتمسك بعناصرها ومعالمها في منطقة الواحات بالجنوب الجزائري، يعد دون شك تمسكا بتراث المنطقة الحضاري والثقافي، وصيانته من التحديات التي تواجهه – خاصة– في عصرنا الحاضر؛ عصر العولمة والثّورة الاعلامية، التي تسعى دوما لتشويهه وسلخ أصالته، والحطّ من قيمته. ولأن شجرة النّخيل تعد أحد أهم عناصر الطبيعة بالجنوب عامة، اعتمدها سكان الواحات ممثلة تراثهم ودليل ثقافتهم، ورمزا أصالتهم، وسمة انتمائهم وهويتهم، لذلك التزم شعراؤها الشعبيون بتخليدها في الذاكرة الشعبية للمنطقة. من خلال ما جادت به قرائحهم وابدعته مخيلتهم من قصائد، تضمنت صورا ورموزا عديدة ومتنوعة للنخلة، حفّزتنا على محاولة دراستها وتوضيح دلالاتها. واكتشاف أبعادها الثقافية والاجتماعية الدّينية منها والأسطورية، وكذا السياسية، مع الوقوف على علاقة النّخلة بالشّخصية الثّقافية لأهل المنطقة، وتحديد معالم هويتهم.

كلمات مفتاحية: الصور، الرموز، النقد الثقافي، النّخلة، الواحات.

Abstract

The significance of preserving nature and its elements in the oasis region of southern Algeria is undeniably a commitment to the region's cultural and historical heritage. This preservation is crucial in addressing the challenges it faces, especially in our current era of globalization and media revolution, which constantly seek to distort and erode its authenticity and value. The date palm, being one of the most important elements of nature in the southern region, has been embraced by the inhabitants of the oases as a symbol of their heritage, a testament to their culture, a mark of their authenticity, and an emblem of their identity. Consequently, local poets have committed to immortalizing the date palm in the collective memory of the region through their poetry, which has depicted numerous and diverse images and symbols of the palm. This has motivated us to study and elucidate its meanings and to explore its cultural, social, religious, mythical, and political dimensions, as well as its relationship with the cultural identity of the region's people and its role in defining their identity.

Keywords: Images, symbols, cultural criticism, date palm, oases.

.

- **فتحا الله بلخير.**

مقدمة :

تعتبر النّخلة في الجنوب الجزائري من أهم أنواع الأشجار المثمرة إن لم تكن أهمها على الإطلاق، عرفت بالصّبر وبقدرة التحمل على مقاومة الظّروف المناخية، والتّكيف مع الطّقس الصّحراوي القاسي والشّديد البرودة شتاء، والحار الجاف صيفا، بالإضافة إلى الزّوابع الرّملية الشّديدة خصوصا في فصل الرّبيع. ولقد انتشرت بشكل واسع في منطقة الواحات، نذكر منها واحات الزّيبان شمالا وواحات وادي سوف، وادي ريغ جنوبا. حيث تغرس بها شجرة النّخيل القرطاجنية (phoenix dactylifera) المعروفة بمقاومة تلك الظروف المناخية والطقسية القاسية حسب ما أشار إليه" غيرستر(Gerster)"في كتابه (الصحراء الكبرى).

كلّ تلك الميزات جعلت من النّخلة العمود الفقري الذي تقوم عليه الحياة الاقتصادية للواحات، حيث كان لها أثر مباشر على الحياة الاجتماعية والحضارية والثقافية والأدبية لمنطقة الجنوب عامة، وعلى سكان الواحات خاصة، من خلال تجلي خصوصياتهم الثقافية، وتحديد هويتهم الشخصية والإقليمية.

وباعتبار الأدب الشعبي من أهم روافد التراث الشعبي اللامادي بالمنطقة، لا سيما الشعر منه، بصفته حامل التراث ومصدر الثقافة الشعبية، ولكون النخلة تعد عنصرا هاما من عناصر التراث الشعبي بالواحات، فكثير ما ارتبطت بصفتها المادية بالشّعر الشّعبي بالجنوب الشّرقيّ الجزائريّ ،إذ خلّدها شعراء المنطقة في انتاجاتهم الشّعريّة باعتبارها نشاطا فلاحيا ومصدرا اقتصاديا بامتياز ، في حين ألبسوها كذلك صورا وحمولات رمزية ثقافية واجتماعية وسياسية كثيرة، طرحت أمامنا إشكالية مفادها: ما هي هذه الصور والحمولات الرموز الثقافية والاجتماعية للنخلة التي تضمنتها النّصوص الشّعريّة الشّعبيّة بالواحات؟ ولقد تفرعت عنها إشكاليات فرعيّة منها: ما الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والاسطورية التي عبرت عنها؟

ولقد افترضنا أن:

-للنخلة صور ورموز ثقافية واجتماعية وسياسية متنوعة ومتعددة في الشعر الشعبي بالواحات.

-صور النّخلة ورموزها مستوحاة من البيئة والتراث الحضاري والثقافي والدّيني للشاعر بالإضافة إلى تجربته الخاصة .

-للصور والرموز علاقة بالشخصية والهوية الثقافية للمنطقة .

أما عن أهمية الموضوع فتتجلى في أن الاهتمام بتراثنا الأدبي الشّعبي خصوصا في عصرنا الحاضر، عصر العولمة والثّورة الاعلامية ،التي تسعى دوما لتشويهه وسلخ أصالته، والحط من قيمته ، أصبح مسؤولية الجميع، لاسيما الطّبقة المتخصّصة من باحثين ودارسين وغيرهم، علهم يساهمون في إحيائه وبعثه من جديد، من خلال تسليط الضّوء على عناصره ومقوماته، خاصة، النّخلة بإقليم الواحات ، باعتبارها رمز الأصالة وسمة للانتماء، فهي الشّجرة المباركة التي حثنا الرسول صلى الله عليه وسلم على الاهتمام بها حيث قال :"أكرموا عمتكم النّخلة"، والجدير بالذكر أن منظمة "اليونسكو(unesco) "أدرجت النّخلة في التراث ضمن القائمة التمثيلية للتراث الانساني كدليل للثقافة العربيّة، الشي ء الذي يؤكد لنا أهمية الموضوع، و يحفزنا أكثر على دراسته .لاسيما أن منطقة الجنوب الشّرقي تزخر بمنتوج أدبي شعبي جادت به أنامل أدبائها، وفاضت به قرائح شعرائها الفطاحل، وبذلك ألزمونا البحث في ذخائرهم علنا نساهم ولو بنزر في الحفاظ على تراثنا الأدبي الشّعبي من الاندثار.

ومن الدراسات السابقة لهذا الموضوع نذكر: دراسة أحمد جهلان، رمزية النخلة في أدبيات الشاعر محمد صالح ناصر، بالإضافة إلى دراسة أحمد الأمين دراسة في صورة النخلة لمرثية محمد بن قيطون في قصيدته المعروفة حيزية، ولقد انتهجنا منهج الدراسة وفق مقاربة نقدية ثقافية.

الإشكالية :

ارتبطت النّخلة بصفتها المادية بالشّعر الشّعبي بالجنوب الشّرقيّ الجزائريّ لا سّيما بواحاتها الشّاسعة، حيت خلّدها شعراء المنطقة في انتاجاتهم الشّعريّة باعتبارها نشاطا فلاحيا ومصدرا اقتصاديا بامتياز للمنطقة، كما ألبسوها كذلك صورا وحمولات رمزية ثقافية واجتماعية كثيرة طرحت أمامنا إشكالية مفادها: ما هي الصور والحمولات الرموز الثقافية والاجتماعية للنخلة التي تضمنتها النّصوص الشّعريّة الشّعبيّة بواحات الجنوب الشرقي الجزائري؟ ولقد تفرعت عنها إشكاليات فرعيّة منها: ما الأبعاد الثقافية والسياسية والاقتصادية والدينية والاسطورية التي عبرت عنها؟

I. مفهوم الصّورة والرّمز:

تشير معظم البحوث والدّراسات أن مصطلح الصّورة لم يحظ بمفهوم شامل وجامع لدى الدّارسين والنّقاد القدماء منهم والمحدثين أو المعاصرين، فلقد تباينت مفاهمة فاقتصر مفهوم الصّورة لدى القدماء على مفهوم الصّورة البلاغية والمجازية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز مرسل، ليتعداه عند المحدثين حيث يضيفون إليه الصورة الذهنية، والصورة الرمزية ويتوسع بعدئذ أكثر فيبعدون الصّفة المجازية عنه، فقد تكون الصّورة عبارات حقيقة تتضمن خيالا خصبا . ولهذا فهي –بالمعنى الحديث، وسيلة من وسائل نقل الأفكار والعواطف معا إلى القارئ أو المتلقي.

اذن حسب المفهوم الجديد الصورة هي تشكيل لغوي يكونها خيال المبدع من معطيات متعددة، يقف عالم المحسوس في مقدمتها. فأغلب الصور مستمدة من الحواس دون اغفال الصور النفسية والعقلية.

II. علاقة الصورة بالشّعر:

من المؤكد أن ثمة علاقة وطيدة وتلازميه بين الشعر والصورة، بل الشعر ضرب من التّصوير. يقول "الجاحظ:" إنّما الشّعر صناعة وضرب من النّسج وجنس من التّصوير " وهو مفهوم قديم شائع منذ هوراس حسب رأي محمد حسن عبد الله. حتى قيل " أن الرّسم شعر صامت والشّعر صورة ناطقة. "

قيمة الشعر إذا وجماليته تكمن في صورته لهذا هما متلازمان، فالمعاني الشعرية بالصورة تتمثل في صفة جديدة ومبتكرة مرئية معبرة بعدما كانت غائبة خفية؛ أي من شكلها المسموع أو الذهني إلى شكلها المرئي يقول عبد القاهر الجرجاني: "واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل قياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا ...". دلائل الاعجاز

III. مفهوم الرمز وعلاقته بالصورة:

يعد الرمز ظاهرة من الظواهر اللغوية الكتابية التي تطورت بتطور الحياة والتي أصبح له سلطة عرض الايحاءات الأدبية النثرية عامة والشعرية خاصة، وكونه يسهم في تقريب الفكرة للأذهان والكشف عن مستور اللفظة من خلال تفعيل الحواس واقترانها به عده الدّارسون والنّقاد ضرب من الصّورة الشّعريّة، ودرجة من درجات تطورها، فهو ينتمي للصورة أو بالأحرى هو جزء منها ويمتلك الوساطة والرّبط الذي ينتظمها في القصيدة، بل هو نوع من أنواعها فالصّورة حسّية وحين تتعقد ايحائيا وتتجرد تغدو رمزا ، وحين تتكرر تصبح نمطا لدى الشّعراء وهذا ما يجعلها أشبه بالرّمز المتفق عليه أطلق عليها "نورمان فريدمان "الصورة الرامزة"1، ويرى "أدونيس أن الرّمز هو القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة"2، في حين يعد الرمز وسيلة من وسائل الإيحاء بالمضمون العاطفي أو الفكري، الكامن خلف اللفظ المستعمل كرمز. وبذلك يكون الرمز أقوى في التعبير من اللغة في دلالاتها الطبيعية عن الجوانب النفسية خاصة، وقد يكون أرقى أسلوبا من الصورة في حد ذاتها والتعبير المباشر أو المعياري كالتشبيه والاستعارة...وغيرها. وهذه الأخيرة بدورها قد تتطور وتسمو وتصبح رموزا.

IV. مفهوم النخلة:

1- لغة:

تعددت تعاريف النّخلة بتعدد القواميس والمعاجم، ولكنّها تكاد تذهب مذهب الخليل بن أحمد الفراهيديّ والأصمعي في تعريفهما (النَّخْلَ) حيث قالا:" إنّها شجرة

[1] ينظر علي البطل، الصورة الشعرية المرجع السابق ص 29/28.
[2] أدونيس ، زمن الشعر ، دار الفكر ، ط 5 ،1986 ، ص 160.

التّمر، وجمعها نخل ونخيل وثلاث نخلات، وقيل إن الاسم مأخوذ من نَخَل المنخل وانتخل الشّيء أي اختاره" (الفراهيدي 2002، ص 2002/ 2003) ، وجاء في (لسان العرب) في (مادة نخل) "نخل الشّيء ينخله نخلا وتنخّله وانتخله: صفاه واختاره؛ وكلّ ما صفّي ليعزل لبابه فقد انتخل وتنخل، وانتخلت الشّيء: استقصيت أفضله، وتنخلته: تخيّرته، فالنّخل التّصفية. والانتخال: الاختيار لنفسك أفضله، وهو التّنخُّل كذلك"(ابن منظور1994م، ص652/651)،

-تكاد هذه التعريفات تجمع على أن اسم النخلة مشتق ومنتزع من معنى الاختيار والتنقية والتصفية والمفاضلة من بين كل أنواع الشجر .

2- اصطلاحا :

تعتبر شجرة نخيل التّمر من أقدم نبات الفاكهة في الدّنيا ذات الأهمية الاقتصاديّة الكبيرة دائمة الخضرة، وهي شجرة تنتمي إلى وحدات الفلقة، كما هي ثنائية المسكن (الحمادي، 1417هـ، ص 101) ؛أي منها شجرة ذكر وأخرى أنثى كالإنسان، وهو الشّجر الوحيد في ذلك، يسميها الاغريقيون الشّجرة حاملة الأصابع .قال عنه السّجستاني في مقدمة كتابه النّخلة :" النّخل سيّد الشّجر، وملك الرّياض، وأمير الحقول، وعروس البساتين والحدائق" . ، وجاء في معجم المعاني الجامع "النّخلة شجرة من فصيلة النَّخليَّات، مرتفعة الطّول، في رأسها جريد، تنبُت في المناطق الحارّة، تعطي ثمارا يعرف بالبلح وهو أنواع" (معجم المعاني ،(د ت)، (د ص)).

النّخلة إذا هي خلاصة الشّجر وصفوته ومن أقدمه، وهي شبيهة بالانسان في النوع (ذكر/أنثى) وفي الاخصاب (مثمرة)وفي مقاومة الظروف الطبيعية.

V. النخلة الأصول والمنشأ:

يرى كثير من الباحثين أن أصل النّخيل يرجع إلى الخليج العربي وبالضّبط إلى البحرين ومنه انتقلت إلى بابل بالعراق حيث عرفت لدى المسلمين دون سواهم من الأجناس، يقول السّجستاني : " النّخل ... عربيّ الأرُومة والنِّجار ليس في بلاد الشّرك شيء

منه، نبت في الجزيرة العربيّة وأرض العراق، وانتقل إلى سائر الأمصار والآفاق" (السجستاني، 2002، ص 5) ، ويقول أيضا : "وليس في بلاد الاسودان كلّها ولا بلاد البيضان المشركين شيء من النّخل" (السجستاني، 2002، ص 37) ،وبعدئذ "ومع الفتح الاسلامي انتقلت النخلة مع الفاتحين إلى بلاد الشّام ومصر والجنوب التونسيّ وبعض المناطق الأندلسيّة والصّحراء المغربيّة والجنوب الجزائريّ " .(ديفل ،دت، ص 92)

وتعد منطقة الجنوب الشّرقي الجزائريّ من أهم المناطق انتاجا للنخيل، فلقد عرفت أجود أنوع التمور (دقلة نور)، لاسيما في واحاتها المتعددة منها واحة الزّيبان شمالا(بسكرة)، وواحات وادي سوف، ووادي ريغ جنوبا وكذلك ورقلة، وتعتبر شجرة النّخيل القرطا جنية (Phoenix dactylifera) بمن بين أنواع النّخيل المنتشرة بالواحات، لأنّها الأكثر مقاومة للظروف الطّبيعيّة والمناخيّة القاسية التي تعرفها الصّحراء " غير ستر" (Girister) ،1961،1ص 129)

ونفهم من خلال ذلك أن النخلة عربية الأصل والمنشأ، موطنها الأول "شبه الجزيرة العربية" تم ترحيلها مع الفاتحين إلى بقية الأمصار لتصل إلى صحرائنا وجنوبنا الجزائري، خاصة الجنوب الشرقي الذي انتشرت في واحاته أجود أشجار التمر لعل أهمها نخلة دقلة نور المشهورة.

VI. صورة النّخلة ورمزيتها في الشّعر الشّعبي بواحات الجنوب الشرقي الجزائري

لقد سبق أن ذكرنا بأن النخلة بالواحات سيطرت على فكر ووجدان الشعراء وملكت أحاسيسهم، وقد يكون من السابق لأوانه أن نفترض بأن الشاعر الشعبي كغيره من الشعراء الرسميين، وظف الصور والرموز في إنتاجه الشعري للتعبير عن الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية للنخلة، فصلة القرابة بين النّخلة والانسان عامة وطيدة، فما بالك إن كان هذا الانسان شاعرا شعبيا ؟إ. فهي لا شك أنّها ستطارد خياله وفكره في معظم قصائده الشّعرية، وستستحوذ على قلبه، وتحتل مكانة عالية في حياته الثقافية ، ودون شك أنه سيرسم لها عدة صور ويتخذ لها عدة رموز. سنحاول الوقوف عليها من خلال دراسة

بعض النماذج المختارة من شعر الواحات لشعراء يعتبرون من فحول الشعر الشعبي بمنطقة الجنوب الشرقي الجزائري من أمثال الشاعر الشعبي الهادي جاب الله، والشاعر مصري عبد المجيد، والشاعر العربي بن الطاهر الحشان، والشاعر بن جدية، والشاعر الشعبي قاسم بن حرز الله، والشاعر الشعبي بشير قيطون، والشاعر الشعبي الجموع ي بالمصطفى، وغيرهم من الشعراء..

VII. البعد السياسي: النخلة كصورة للسّلطة ورمز للعظمة وعلو الشأن:

عظّم الشّاعر الشّعبي الشّجرة وبجّلها عن غيرها من الشّجر، حيث نجده في نصوصه يعلي من شأنها وينزلها منزلة السّلطانة في هامتها، فتغدو بحسبه رمزا للسّيادة والسّلطة، إذ تتربع عنده على عرش الشّجر، كونها من أرقى أنواعه وثمارها من أجود ثماره، ممّا جعلها مفخرة القارة الافريقيّة، وهذا ما نلمسه في قصيدة الشّاعر الشّعبي الهادي جاب الله (1882-1978):

" سُلْطَانْةِ السَّجَرْ في الدُّنْيَا تِسْتَاهَلِي انقول عْلِيكْ

ربِّ رزق بيك الغُنْيَا وُافْرِيقْيَا افْتُخْرَتْ بِيكْ

سُلْطَانْةِ السِّجَرْ مَشْكُورَةْ تِشْتَّقْ مِنِ اسْمَاهَا نُورَةْ." (زغب،2009، ص108)

VIII. النخلة كصورة للسيادة ورمز للدلال:

وفي نفس الواحة يتغنى الشاّعر مصري عبد المجيد بالنّخلة في قصيدته التي نظمها عام (1939) بالطّيبات إذ نجده يتفاخر بها، وينحني لها طائعا صاغرا مؤتمرا. فهي – حسبه – سيّدته المبجلة، التي يعتزّ بخدمتها، وبمناداتها ب (لالة) الدّالة على شدة الاحترام والولاء وكذلك التّقديس ومنتهى الدّلال الذي يحاكي فيه دلال نخيل دلون، وبذلك ينطبق عليه المثل السّومري "كانوا يدللون ملوكهم كما تدلل نخيل دلون "، وفي ذلك يقول:

"تستاهلي انقولك لا له ونال عز وافر بيك"(باوية،2021، ص 225)

IX. البعد الاجتماعي: النخلة كصورة للأبوة ورمز للحنان

إن أجلّ علاقة وأعظمها بعد علاقتنا بالله عزّ وجلّ هي علاقة الأباء بأبنائهم، التي تحيلنا إلى صورة الأبوة التي تسودها علاقة حميمية مفعمة بالحب والوّد، تلك الصورة النبيلة، كثيرا ما جسدها شعراء وادي سوف في قصائدهم، وصوروها في لوحات فنية جميلة ومعبرة، وسر جمالها يكمن في أن الشاعر هو الذ ي أنشأها بنفسه مذ كانت فسيلة (حشانة)، وكم حنّ عليها حنين الأب على بناته حتى كبرت وأثمرت. وفي هذا الشأن يرى أحمد زغب أن قصيدة (الحشان) للشاعر العربي بن الطاهر الحشان المتوفي 1969. والتي مطلعها:

" غِيرْ أَخْدَمْ عَلَى الحَشَّانْ فِي الدّنْيَا ولاَخْرَة مَضْمَانْ " (زغب 2020، ص 15).

فتحت شهية شعراء وادي سوف وجعلت كثيرا منهم يضمنون أشعارهم أبياتا منها، ومن ذلك قول الشّاعر خليفة بن علي:

"سَعْدِي بْحَشَّانِي كِي طَلَّ عْلَىَّ مِنْ الْعَامِي

كِي وُلْدِي يِجْري قِدَّامِي وَقْلُوبْ الْوَالْدِينْ حْنَانْ" (زغب، 2020، ص 16).

ويقول الشّاعر الهادي جاب الله:

" فِي الشْقِيقَة نَخْدَمْ مَا بِيَاشْ حْقِيقَة

شَفِيتِيْنِي غْرِيسَةْ رْقِيقَة بْوَذْنِي نَسْمَعْ فِيكْ تَكْتي

مَازَالْ نْزِيْدَكْ تَقْعِيدَة ثُوْرِي ثُوْرِي سَلَّمْ بَنْتِي كَانْ طْلَعْتِ " (زغب 2020، ص 15). أنطولوجيا الشعر.

ونلاحظ أن عاطفة الأبوة طغت على هذه الأبيات، ونالت النخلة الأنثى حظّ الذّكر في قلب الشّاعر الصّحراوي بالواحات.

X. النخلة كصورة للأمومة ورمز للأنوثة والخصوبة

كثيرا ما تغنى الشاعر الشعبي بالنّخلة وبعرجونها وبثمارها، بل اتخذها صورة معادلة للمرأة تضارعها في جمالها وحسنها، فمدحها، وأثني عليها وتغزل بها وافتخر، وخير مثال لذلك نجده في التراث السّوفي ومن خلال أبيات قصيدة (يا بنية العرجون) التي تغنى بها المطرب عبد الله المناعي وصرح بما كنى عنه الشاعر الشعبي المجهول حين قال:

"يَا بْنِيةْ الْعَرْجُونْ لْرَبِّي رُدِي عَلِيَا عْجَبْنِي خْيَالَكْ يَا هَا بْطَة للْغُوطْ وِينْ رْجَالَكْ". (مجلة رجيم (د ت) (د ص))

فيصرح المطرب عبد الله المناعي ويقول:

" يَـا بْنِيَـةْ الْعَرْجُـونْ لْـرَبِّي رُدِي عَلَـيَّ يَاكَامْلَـةْ بِـالزِّينْ يَـا المسْـمِيَّةْ "(السُّـوفِيَةْ)). (المناعي، (د ت) (د ص)).

ويعترف الشّاعر (محمد بن جدية) شاعر واحة ورقلة بعشقه للنخلة وبحبه وهيامه بها، فينعتها تارة بالحبيبة وتارة أخرى بعروس الصّحراء المتزينة بأبهى حلة، وهي ثمارها الطّيبة.

" يَالحَبِيْبَة يَا لْنَخْلَة عَمَتْنَا يَا غَالْيَةْ السُّومْ خِيْرَكْ مَا نَنْسَاهْ

يَا لَعْزِيْزَة يَا عْرُوسَةْ صَحْرَتْنَا مَا زْيِنَك بَاتْمَارْ طَيِبْ يَا مَحْلَاهْ

الأُمْ الْحْنُونَةْ أَنْتِ رَبِيْتنَا يَاكْ الْوَلْد اِرَجَعْ الْخِيْر لِيْمَاهْ

النَّخْلَـة ثْمَارْهَـا مَـنْ الْجَنَّـةْ أَتْهَلُـوا فِيْهَـا يَـا عْبَـادْ اللَـهْ."(بن جديـة، 2001، ص 73)

XI. النّخلة كرمز للذكورة والأنوثة

تعد ثنائية الذّكورة والأنوثة من الثنائيات الأكثر جدلا في جميع العصور الأدبية خصوصا عند التعرض إلى قضية الهيمنة الذّكورية، لكن يبدو أنّ الشّاعر الشّعبي فصل في هذا الأمر من خلال رأيّه الّذي بسطه في هذه الأبيات، حيث نجده يقرّ بأن النّخلة تشكل مجتمعا متكاملا شبيها بالأسرة في تنوع أفرادها، ففيها الذّكر والأنثى التوأم، وهي تضارع الإنسان في قامته وشكله فرأسها في السّماء وفرعها في الأرض، لكن خصّ الذّكر بالفحولة وفي ذلك يقول الشّاعر:

"النَّخْلَة أَنْوَاعْ لَا حَسْرَانْ فْحُولْ وَإِنَاثْ تَوْأَمَانْ

لَا شْجَارْ كُلّْهَا زَوْجَانْ أَسْأَلْ الشّْاعَرْ أَيْوَعِيكْ

أَشْبَهْ اَشبِيهْ بَلْا نْسَانْ رَاسَكْ الْفُوقْ لَا رَجْلِيكْ " (مصري، 1939، مرقونة)

الشّاعر إذن موقفه واضح من قضية الهيمنة فالفحل في عرف المنطقة هو القيم لأنه يمتلك السلطة والقوة وإليه يرجع تسيير الأمور.

XII. النخلة كصورة للأناسة ورمز للقرابة وصلة الرحم:

بين النخلة والانسان علاقة قرابة أقرّت بها الأديان وصرحت بها كتب السنة إذ تروي حديثا منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم:"**أكرموا عمتكم النخلة**" (الألباني في السلسلة الضعيفة، تحت رقم: 263).

وها هو الشّاعر محمد بن جدية يؤكد هذه العلاقة حين ينعت النخلة بالعمّة الغالية التي يعترف بخيرها، وتجدر الاشارة إلى أن صلة القرابة التي عبّر عنها الشّاعر هنا ليست قرابة الأم من الاب فقط كونها أخت الأب، بل تتعداها إلى الأصل فهي –حسب اعتقاده– أخت أبينا آدم عليه الصّلاة والسّلام أب البشرية الذي نُخلت من فضلة طينته، ويسترسل في مدحها ووصفها إلى أن يسمو بها إلى درجة الأمّ الحنون والمربية الفاضلة، التي تستحق أن ينحني أمامها، ويقبل قدميها اعترافا بجميلها قائلا:

"يَا سَعْد اَلِي كَاسْبَكْ يَا عَمَتْنَا أَنْتِ رَاسْ الْمَالْ خِيرَكْ مَا نَنْسَاهْ

الأُمْ الْحَنُونُة أَنْت رَبِيتْنَا يَاكْ الْوَلدْ اِرَجَعْ الْخِيرْ الْيمَاهْ "(بن جدية، ص73.)

XIII. البعد السّياسي والثّوري: النّخلة كصورة للكفاح ورمز للصّمود والتّضحية:

الشّجرة تعد في كثير من القصائد الشعبية الجندي المجهول الذي يجب التعريف به، اعترافا بموقفها النبيل الذي يتمثل في وقوفها بجانب المجاهدين إبان الثّورة وفي جميع أوقات الشّدة ، وتلك إشارة إلى الدّور الجبار الذي لعبته النّخلة في أيّام المحن والأزمات، التي عرفها الشّعب الجزائري زمن الاستعمار الفرنسيّ، حيث يذكرنا الشّاعر بمساندة النّخلة للثوار في حرب التّحرير الكبرى، فلقد كانت النّخلة جنديا من جنود الخفاء، بل حليفة الثّوار والمجاهدين، إذ وقفت معهم جنبا لجنب، وناضلت وقاومت الاستعمار، ومدتهم بأعزّ ما تملك، فلقد أطعمتهم حين جاعوا فلذة كبدها (ثمارها)، وأوتهم في حضنها وضحت بنفسها

من أجلهم ،وكانت الدّرع الواقي لهم، إذ تلقت القنابل والرّصاص دفاعا عنهم، وبذلك شاركت النّخلة أخيها محنته، وزودته وقت الشّدة حاجته. قال الشّاعر :

"فِي وَقْت الشَّدَة النَّخْلَة هَزَتْنَا عَايَشْ مَنْهَا الشّعْبْ لَاحْ الشَّرْ اوْرَاهْ."

(بن جدية، ص73.)

لذلك وجب على الشّاعر ردّ الجميل، للنخلة المعشوقة، وبرّها برّ الأمّ التي قدّسها القرآن، وأوصانا الرّسول صلى الله عليه وسلم بها خيرا، قال عز من قائل: ((ووصينا الانسان بوالديه حسنا)) فما جزاء الإحسان إلاّ الإحسان وإلا كما تدين تدان. حديث شريف. وفي ذلك يقول الشّاعر:

"نَنْصَحْكُمْ يَا نَاسْ نْصِيْحَة زِيْنَا أَتْهَلُوا فِي النَّخْلَة اِللِي دَرْتُو تَلْقَاهْ

ذَكَرْكْ فِي الْقُرْانْ رَبِّي مُوْلَانَا فِي سُورَةْ يَس اَسْمَكْ أَقْرِيْنَاهْ

والرَّسُولْ أعْلِيكْ ثَانِي وَصَّانَا يَشْفَعْ فِيْنَا يَوْمَ غُدْوَة كِي نَلْقَاهْ." (بن جدية، ص73.)

XIV. البعد الدّيني: النّخلة كرمز للخلود والفناء:

وفي واحة الزّيبان نجد الشّاعر الشّعبي محمد بن قيطون *، يصوّر حيزية بعد موتها ووضعها في القبر بالجبارة* التي غرست في مكان تتوفر فيه المياه الدائمة الجريان، وهّذا إيماء منه إلى تجددها وخلودها حسب الاعتقاد الذي كان سائدا في الحضارات القديمة والأساطير البابلية. فالنخلة في اعتقادهم رمز الخلود والتجدد شأنها شأن العنقاء وجنة عدن. وفي ذلك يقول:

"دَارُوهَا فِي اللْحُودْ والزِّينْ الْمَقْدُ ودْ

جَبَارَة بِينْ السْدُودْ والسْوَاقِي حِيهْ"(الأمين، 2007 ص 265)

لكن اعتقاده هذا سرعان ما يتلاشى أمام حتمية الموت، وقدرة الله في قهر مخلوقاته وإفنائها، فرغم ثبات النّخلة الضّاربة الجذور في الأرض الدّال على مدى قوتها وأصالتها إلاّ أنّ الرّيح اقتلعتها من جذورها. وهذا ما تشير إليه الأبيات الآتية:

"بَنْتْ أَحْمِيْدَة تْبَانْ كَضِي الوَمَّانْ

نَخْلَةْ فِي بُسْتَانْ غِيرْ وَحْدَهَا شَعْوِيةْ
زَنَدْ عَنْهَا الرّيحْ قَلَعْهَا فِي الْلمِيحْ
مَا نَحْسْبهَا تْطِيحْ دَايَمْ مَحْضِيَةْ." (الأمين ،2007، ص 266)

ويصرّح الشّاعر بلقاسم حرز الله * بحتمية موت وفناء النّخلة حيث راح يصور النّخلة بالعجوز الهرم، بل الشّمطاء الفانية والصبورة، المؤمنة بالقضاء والقدر، والمستسلمة للنهاية المحتومة، حقيقة توصل إليها بعدما حاورها وسألها عن حالها بعد الشيخوخة، وعن سبب تهميشها من طرف الجميع، حيث يقول:

" يَا نَخْلَةْ فُوقْ النّْخَلْ زَدْ بِي بَسْطَا أَحْكِيْلِي يَا صَامْدَة وَاشْ أَ مْعِيْكْ
رُبْعْ مْيَاتْ سْنِينْ فِي هَذْ النُّقْطَا وَ الْبَقِية يَا الخُو رَآهَا تَأْتِيكْ
جْدَبْتِي وَاطْوَالْ قَدَكْ يَا شَمْطَا مَتْرُوكَة وَلَا مَنْ سَالْ عْلِيكْ." (الأمين، 2008، ص 23).

وتجيبه النّخلة بحكمة العقلاء وبلسان أبي البقاء الرندي :

لِكُلِّ شَيءٍ إذَا مَا تمَّ نُقصانُ فَلا يُغرَّ بِطيبِ العَيشِ إنسانُ "
(المقري،دت،ص 48،488)

بعد العلو لابد من النّزول والهبوط – فالأيّام دول – وبعد الحياة لابد من الموت المقدر على الخلق الذي لا مفرّ منه، وكأنّها بجوابها هذا تحيلنا إلى التأريخ من جهة، فالنّخلة عريقة المنشأ عراقة حضرتها البابلية القديمة أين ظهرت النّخلة منذ 4000 سنة، قبل المسيح، وفنت تلك الحضارة، ومن جهة أخرى توجهنا إلى المرجعية الدينية المؤمنة بالقضاء والقدر، عملا بقوله تعالى: ((كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)) سورة الرحمن الآية 27، كما تشير إلى حقيقة فلسفية توضحها هذه الأبيات:

"مَنْ بَعدْ أَنْ عْلِّيتْ لاَبُدَ نُوْطَا حَالْ الدّنْيَا هَكْذَا لما يَخْفِيكْ
رَاسَكْ دُوَّدْ والجْرَايِدْ مَخْرُوطَا حَتَّى مَنْ لَطْيَارْ مَاعَدَ تشْ اتْجِيكْ

لاَبُـدَ نَفْـنَى يَـا لْخُـو وَلَـوْ نَبْطَـا والْمَكْتُوبَـة كَاتْبَـة بِـاذْنِ الَمَالِيـكْ."(الأمين، 2008، ص 237)

XV. النخلة كرمز أسطوري مقدس:

لا يخلو الشّعر الشّعبي بمنطقة الواحات من الايماءات الأسطورية حسب معتقداته الدينية، التي تجعل من النخلة الكائن الخارق المشحون بطاقات وقدرات عجائبية؛ إذ نجد الشّاعر الشّعبي بمنطقة الزّيبان يجعل منها مخلوقا يصطفيه الله ويرفعه إليه، كما اصطفى الله عز وجلّ نبيه عيسى عليه الصّلاة والسّلام ورفعه ونجّاه من القوم الظالمين، وهذا ما تؤكده الأبيات الآتية في نفس المرثية السّابقة:

" ثَرْنِيتْ المِلِيحْ دَارَ لْهَا تَسْرِيحْ

حَرَّفْهَا للمَسِيحْ رَبِّي مُولَايْ. ". (الأمين، 2007، ص 266)

الشاعر الزيباني هنا نجده يسمو بالنّخلة وينزلها منزلة الأنبياء ويكرّمها ويرفعها إليهم، وهذا دليل على مدى اعتقاده بمكانتها المرموقة والمقدسة.

ومن واحة تقرت يناجي الشاّعر الجموعي بالمصطفى النّخلة وتناجيه وتحادثه عن روحها المستتر المليء بالمشاعر الصّادقة، والمشحونة بالودّ والاخاء لبني البشر، التي تجمعها بهم صلة قرابة ،وعلاقة تاريخية ودينية عريقة، يجب على الجيل الجديد أن يعيها جيدا ويتمسك بها، لأنها من أساسيات تراثه، وجزء من هويته الشّخصية والثقافية المشرفة، فالنّخلة شجرة مقدسة شرفها الذّكر العزيز وكرمت بمولد المسيح، قال تعالى :((فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَىَ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَّنسَيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ،وَهُزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ عضليك رُطَبًا جَنِيًّا)) سورة مريم ،الآيات 25/24/23 . ولذلك يقول بلسانها:

"حَدَّثْتْنِي نَخْلَةْ بِحَدِيثْ النَّخِيلْ قَالَتْ أَمَانَةْ قُولِي يَا شَاعَرْ

وَصَّلْ قُولِي يَفْهَمْ هَذَا الْجِيلْ وَحَدِيثِي يُوْصَلْ بِصِدقْ الْمَشَاعِرْ

أوّلْهَا مَذْكُورْ اسْمِي فِي التَّنْزِيلْ النَّخْلَةْ اسْمِي فِي كْتَابَهْ حَاضَرْ

وْذِكْرِي دْوَامْ يَتْرَتَلْ تَرْتِيلْ مَنْ خَلْدَهْ القُرْآنْ حَقّهْ يَتْفَاخَرْ
وْيَعْرَفْ قَدْرِي عَرْبِي أَصِيلْ وَلدْ الصّحْرَاء لْفَضْلِي شَاكَرْ.
وْشَاهْدَة مِيْلاَدْ صَاحَبْ الإِنْجِيلْ العَذْرَاءْ غَدِيتْهَا بْخِيْرِي الْوَافَرْ
هَزَّتْ جَذْعِي وَبْأَمرْ الجَلِيلْ تْسَاقَطْ رَطْبِي لْمَرْيَمْ تْكَاثَرْ
وْجَدْعِي حْنِينْ مَا طَاقْ الرّحِيلْ وْمَاسَكْتَهْ غِيرْ الْخُضنْ الطَّاهَرْ". (بالمصطفى، 1917 ص 93 /95/94)

إذن النّخلة تعرب عن نفسها، فهي مخلوق حساس وحنون يفتخر بتاريخه ومنجزاته، وها هو الشّاعر ينشد تخليده في ذاكرة الجيل الجديد، وخاصة جيل الصّحراء؛ الجيل الذي بدأ يتجاهله لجهله بحقيقته التّاريخية والثقّافية، وكذا الدّينية المقدسة التي يجب على الشّاعر أن يبلغها له، بل يذكّره بها. لأنها مسؤوليته كونه مؤهلا لإيصال هذه الرّسالة بأمانة، ولأنّه قادر على توعيته وحثه على الحفاظ عليها.

خاتمة:

وفي ختام هذه الورقة البحثية نخلص إلى أن صورة النّخلة في الشّعر الشّعبي الجزائري بمنطقة الواحات، رغم تعدد رموزها ودلالاتها (الثقافية والاجتماعية والدّينية الأسطورية والسياسية)، إلاّ أنّها لم تتعد تلك الصّور والدلالات النّمطية المألوفة التي عرفها الشّعر العربيّ الرسميّ في مختلف عصوره ،فرمز الانوثة والاخصاب والإثمار طاغ على مخيلة الشعراء الشّعبيين، ولعل ذلك يعود لارتباط الشّعراء بمرجعيات ثقافية وحضارية ودينية تكاد تكون مشتركة، بالإضافة إلى المخزون التّراثي القديم الذي تحفظه الذّاكرة الشّعبية من مرويات ومسرودات شعبية وأمثال وحكم وأساطير قديمة لحضارات سابقة، كانت تقدّس الطبيعة(الأمّ) وتشبهها بالمرأة وتسقط عليه صفة الأمومة كرمز للعطاء والنّماء والإخصاب والحياة، مضاف إليها معارف الشّاعر الخاصة التي اكتسبها من تجاربه الحياتية الخالصة ،كما يجب ألا نغمط الثقافة الدينية الاسلامية حقها، فلقد انعكست على هذه الصّور والدّلالات لا سيما تلك المقتبسة من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشّريفة التي اكتستها طابع الانسانية والاحترام ،

الشيء الذي جعل النخلة تحتل مكانة مرموقة في الشّعر الشّعبيّ، بل في مخيال الشّاعر الشّعبي وما هذه الصّور والرّموز التي اسقطها عليها إلاّ دليل على مدى وعيه بأهميتها الحضارية والثقافية ، وما حرصه على التّمسك بها وتقديسها إلا تمسكا بجزء هام من هويته الشخصية والثّقافية الدينية والحضارية التي لا يمكن الاستغناء عنها.

ولذلك عد الشاعر النّخلة في الواحات سمة للأصالة والانتماء، ورمزا من رموز للهوية الشّخصية والثّقافية للفرد والمجتمع، فقيمة الفرد في مجتمعه بالواحات هناك تقاس بما يمتلكه من نخل، ويكفيه فخرا أن الرّسول صلى الله عليه وسلم عدها من إحدى أقربائه، فوجب عليه برّها وتقديسها والحفاظ على صلة الرّحم معها. بل التغني والاشادة بها.

قائمة المصادر والمراجع

- **الكتب:**

القرآن الكريم.

1. أبو حاتم السجستاني، كتاب النخلة، تح: حاتم صالح الضامن، دار البشائر الإسلامية لبنان 2002.
2. أحمد الأمين، صور مشرفة من الشّعر الشّعبي الجزائري، دار الحكمة الجزائر 2007.
3. أحمد الأمين، من فحول الشعراء في سيدي خالد بسكرة دار السبيل 2008.
4. أحمد محمد زغب: الشعر الشعبي الجزائري من الإصلاح إلى الثورة، دار الثقافة محمد الأمين العمودي الوادي، مطبعة مزوار،2009.
5. أحمد محمد زغب، انطولوجيا الشعر الشعبي في سوف، المثقف، ط1. 2020
6. أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، لبنان، دت.
7. الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تج، عبد الحميد هنداوي، الجزء الرابع (ك ي) ط 1، دار الكتب العلمية، لبنان 2002، م (باب النون
8. جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، المجلد الحادي عشر، دار صدر، ط3، 1994م، حرف اللام، فصل النون.
9. العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى، بمنطقة الأوراس، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 25، نقلا عن محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية، ط5، 1967.

10. العربي دحو المرجع السابق ص 28، نقلا عن عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ،1981

11. الهادي بن علي بن عبد القادر جاب الله، ولد في زاوية سيدي عبد الله بالوادي سنة 1882، وتوفي سنة 1978

12. الجموعي بالمصطفى، همسة صفاء، منشورات السا ئحي الجزائرط1، 2017

13. جورج غير ستر الصحراء الكبرى، تج خيري حمادة، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ط، ،1،1961

14. عبد القادر آل باش أعيان العباسي، النخلة سيدة الشجر، مطبعة دار البصرة، بغداد ،1964.

15. محمد بن جدية، الكنز المكنون في الشعر الملحون، دار الثقافة مفدي زكرياء، ورقلة، 2001.

16. مصطفى الحمادي، الإزهار وخف الثمار في نخيل البلح، جامعة الملك سعود ،1417هـ.

17. وادي سوف: تقع في الجنوب الشرقي من القطر الجزائري وسط العرق الشرقي للصحراء الجزائرية، تبلغ مساحتها حوالي 82كام مربع، يحدها شرقا تونس وجنوبا ليبيا، وشمالا ولاية تبسة والزاب، وغربا تقرت. ينظر علي عون، الدليل السياحي لمدينة وادي سوف، صادر عن لجنة احتفالات العيد الثالث عش لمدينة الوادي الجزائر 1978.

18. وادي ريغ، يقع في الشمال الشرقي من الصحراء الجزائرية الواسعة في منخفض مستطيل الشكل، محصور ا بين العرق الشرقي والنجود المشكلة للبادية الشرقية لإقليم الأغواط والجلفة طوله حوالي 160كلم، شمالا من عين الصفراء المشرفة على شط مروان، جنوب بلدة أم الطيور إلى قوق الواقعة شرق بلدة عمر جنوبا، ويتراوح عرضه بين 30و 40كلم، وقد سماه ياقوت الحموي في معجم البلدان الزاب الصغير أو ريغ بمعنى السبخة. وسماه ابن خلدون في تاريخه بلد ريغ، أو أرض ريغ. ينظر عبد الحميد إبراهيم قادري، وادي ريغ تاريخ وأمجاد، دار الأوطان الجزائر ط 2 2014.

19. صلاح الدين باوية، شعراء الملحون بالجنوب الشرقي الجزائري "منطقة وادي ريغ" دار الخيال،2021.

20. مقال في مجلة:

21. أحمد قيطون، الشعر الشعبي، إشكالية المصطلح، الأثر مجلة الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح ورقلة الجزائر، العدد السادس، ماي 2007.

22. مواقع الانترنت:

23. معجم المعاني الجامع عربي-عربي، www.alamany .com، تاريخ الزيارة: 27 - 12-2022، س23.عباس

24. الجراري، من وحي التراث مجموعة بحوث نشرت في مجلة دعوة الحق 1971.

25. عبد الباسط إبراهيم، نخلة التمر في المعتقدات الشعبية، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 35، ص 4-5، مقال أخذ يوم 28-06- 2022 على الساعة 12:35، من الموقع: https M //folkculturebh /org/ar/ index.php? issue= article &id =670

26. شجرة النخيل دلالاتها ورمزيتها في الفنون الإسلامي، ديفل سميحة، مجلة دفاتر البحوث العلمية، العدد العاشر، مقال أخذ يوم 2022/07/15.على الساعة 21: 18. من الموقع: https;// /595/5/1/113044 / www. Asjp.cerist.dz/en/downArticle

27. الموقع الالكتروني: مجلة رجيم، كلمات أغنية يا بنية العرجون، h 20/ 03/23/ 02 rjeem.com:

28. الموقع الالكتروني، كلمات اغنية يا بنية العرجون عبد الله المناعي https://www.ahparoles.com09/O3/23-12:47h